نعني بـ "الحوزات العلميّة التاريخيّة " ، تلك المراكز السُكانيّة (بلدات ، قُرى) التي كانت محلاً لنشاط فكري(تدريس ، دراسة ، تصنيف . . . الخ.) في "جبل عامل" منذ اواسط القرن٨ الهجري / ١٤ الميلادي ، حتى أواسط القرن ١٠ / ١٦. مع ضرورة القول أنها لم تكُن دائماً (حوزات) بالمعنى الدائر اليوم ، أي أنها لم تكن ذات صفة مؤسّسيّة ثابتة ، تعتمد تقاليد أكاديميّة معمولاً بها. كما نعرفه في مدينة "الحلّة " ، مثلاً ، من قبل ، وفي مدينة " إصفهان " ، مثلاً ، من بعد . غالباً ما كانت تنهض (حوزة) بفضل بروز أستاذ فاضل ، يقصده الطلاب للدراسة عليه . لتنطفئ بفقدان هذا الشرط . أو ببروز أستاذٍ في بلد آخَر .

ونعني بـ " جبل عامل " ما نُسمّيه جبل عامل الثقافي ، تمييزاً له عن جبل عامل التاريخي . وعلى كل حال فإن " جبل عامل " لم يكن في يومٍ من الأيام كياناً سياسياً ذا حدود معلومة . كان حالةً سُكانيّة اكتسبت اسمها من نزول قبيلة عاملة اليمانيّة في " جبل الجليل " ، من مدينة " صفد " الفلسطينيّة ، حتى الحدود الشماليّة لـ " جبل لبنان " . ثم غدا حالةً إداريّة بعد الرّوْك (مسح الأرض لتنظيم جباية الضرائب) الذي نظّمته السُلطة المملوكيّة بعد القضاء على آخر الفلول الصليبيّة . اقتصر على مُحيط مدينتي " صور " و " النبطيّة ". وانتهى إلى حالةٍ ثقافيّة ، بفضل النهضة التي أنجبتْ الرابط الأساسي بين سكانه. امتدت لتشمل أجزاء من غرب ووسط "سهلِ البقاع" المجاور. وضمّت إليه بلدتـَي "مشغره" و"الكرك" . وهذا هو المفهوم الذي دار عليه أول وأهمّ كتاب أرّخ للنهضة ورجالها . أعني(أمل الآمل في علماء جبل عامل) للحر العاملي. وهو نفسه المفهوم الذي يدور عليه بحثنا هذا.(للتفصيل والإسناد: *جبل عامل بين الشهيدين*/ ١٩ـ ٣٠) .

<u>الظهير التاريخي</u> من الثابت أن المنطقة الواقعة بين "قَدَس" و "جزين" جنوباً بشمال و " صور" و "مرجعيون" غرباً بشرق ، أي ما نعرفه اليوم باسم "جبل عامل" ، كانت شبه يباب . ولم تمتلئ بالسكان إلا بسبب الحروب الصليبيّة في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد . التي ألجأت السكان إلى النزوح إليه من أوطانهم في "الأردن" و"فلسطين" . خصوصاً من مدينتَي "طبريّة" و "صور" . وهذا هو التفسير الوحيد المقبول لغياب "جبل عامل" التاريخي قبل ذلك (للتفصيل والإسناد : التأسيس لتاريخ الشيعة في /٢٠١ـ ٢٢٦) .

هذا لجهة الظهير السكاني .

أمّا لجهة الظهير الثقافي ، فإنه ما من سبب لدينا للإعتقاد أنه قبل حوزة "جزين" ، وأعمال مؤسسها الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (ق: ٧٨٦هـ/١٣٨٤م) الانقلابيّة ـ ، كان الوضع الثقافي لأولئك الذين جمعهم البلاء الصليبي في "جبل عامل" شيئاً مُختلفاً عن التشيّع الشامي . ذلك التشيّع البسيط الساذج الخامد ، الذي لم يُنتج فكراً ولا أدبيّات إلا في "حلب" و "طرابلس" ، اللتيَن نجحتا في اختراق التشيّع الشامي ، عن طريق الاتصال المباشر بالمراكز العلميّة في "العراق" . حيث تأسّس في "بغداد" و"الحلّة" أساس التشيّع الكلامي ـ الفقهي . ومن قبل كان قد تأسّس في نقد وتبويب الحديث المَروي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) **في"قم" و "الري" و "ما وراء النهر" .**

تلك الإنجازات الكبيرة ظلّت "الشام" و "الجزيرة" و "الأناضول" إجمالاً ، بما فيها من جماعات شيعيّة كبيرة ، بمنأى عنها ، باستثناء تينك الحاضرتيَن . وطبعاً كان ذلك أيضاً حال"جبل عامل" . نقول هذا، مع علمنا وتقديرنا الكبير للمبادرات الفرديّة التي اجترحها عددٌ من الروّاد العامليين ، أثناء القرنين السابقيَن على الشهيد وأعماله النهضويّة . حينما شدّوا الرّحال إلى "الحلّة" في طلب العلم ، ساعين إلى البناء على قاعدة تجربة "حلب" و "طرابلس" من قبل . وهم : إسماعيل بن الحسين العَوْدي الجزيني (ت : ٥٨٠ هـ/١١٨٤م) ، جمال الدين يوسف بن حاتم المشغري (ح:٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ، طومان بن أحمد المناري (ت:٧٢٨هـ/١٣٢٧م) ، صالح بن مُشرف الطلّوسي (ح:أوائل القرن ٨ هـ/١٤م) . (الترجمة لهم والتعريف بأعمالهم في : *جبل عامل بين الشهيدَين / ٦٧ـ٧٦)* .

أولئك الأربعة هم الروّاد الأوائل ، الذين يعود إليهم الفضل في تعبيد الطريق لأعمال الشهيد . وينبغي أن نُضيف إليهم الهجرة القسريّة للفقيه الحلبي الكبير أبو القاسم بن الحسين بن العَوْد (٥١٨ـ٦٧٧هـ/١١٨٥ـ١٢٧٨م) إلى "جزين" (ذيل مرآة الزمان : ٤٣٤/٣ والعبر في خبر من غبر:٣٢٥/٥) ، حيث تتلمذ عليه عدد غير معروف من أوائل العلماء العامليين . نعرف منهم جمال الدين إبراهيم بن أبي الغيث البخاري (ح:٧٣٦هـ/١٣٣٥م) . وهذا رائد كبير . كان يمكن أن يكون له ما تلاه من دور للشهيد ، لولا أن قمعته السلطة المملوكيّة (الوافي بالوفيات: ٦ / ٧٦ و أعيان العصر واعوان النصر:١٠٧/١ . ودراسة مُسهبة عليه في جبل عامل بين الشهيدين / ٧٨ـ ٨٩). ومن قبل تتلمذ مكي بن محمد الجزيني (ح:٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، وهو والد الشهيد ، على طومان المناري . فتتلمُذ الجزيني على المناري ، والبخاري على ابن العَوْد ، هما أول ما نعرفه من نشاط حوزوي في "جبل عامل " .

بهذه المبادرات المتتابعة على مدى قرنيَن ، بدأ "جبل عامل" يسلك طريقه باتجاه هُويته الجديدة . والمتأمّل الحصيف حين يُنعِم النظرَ في هذه الحركة الثابتة ، مهما تكن بطيئة ، لا يشكّ في أنها تدلّ على أن

"جبل عامل" ، في تلك الفترة المُبكرة من تاريخه الثقافي ، كان يُكِنّ في أعماقه نزوعاً قويّاً للتسامي بذاتيّته المعنويّة . وأن ذلك الحافز الجماعي هو الذي دعا تلك النخبة من أبنائه للسعي ، دونما سابقة ، إلى طلب العلم على بُعدِ الشقة .

هو ذا ، فيما نحسَبُ ، الأساس العملاني والاجتماعي الذي سيبني عليه الشهيد . والذي بدأه بتأسيس أوّل وأهمّ حوزة علميّة في وطنه .

١ ـ جِزّيـن

بلدٌ على الحدود الشماليّة لـ "جبل عامل" ، ما تزال تـُعرَف بالاسم نفسه . فيها نشأت أمّ الحوزات العلميّة العامليّة ، بفضل أعمال ابنها الشهيد الأوّل .

سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م تخميناً رجع الشهيد إلى وطنه ، بعد غياب زُهاء عشر سنوات ، قضاها في رحلةٍ علميّة واسعةٍ . بدأها بالحج ، ثم أقام زمناً في "المدينة" ، وفيها كتب جزءاً من مجموعته الشهيرة ، أرّخها سنة ٧٥٠ هـ/١٣٤٩م ، اقتبس منها محمد بن علي الجباعي في مجموعته (مجموعة الجباعي / ١٣٥آ) . وما وصلنا من مجموعة الشهيد يدلّ دلالة قاطعة على أنه كان قد تلقـّى تأهيلاً علميّاً جيّداً قبل رحلته . ثم اتجه إلى "الحلـّة" ، وقد كانت في ذلك الأوان أهمّ حاضرةٍ علميةٍ للشيعة ، ليُقيم فيها زُهاء السبع سنوات . درس أثناء ها على كبار أساتذتها وشيوخها (أحصيناهم عدّاً في : الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني ، عصره ، سيرته ، أعماله وما مكث منها/ القسم الثاني من الفصل الثالث) . ومنها انطلق في رحلةٍ واسعةٍ ، زار أثناءها "بغداد" و " دمشق" و "مقام الخليل إبراهيم" و " مصر" و "مكة" و "المدينة" . قرأ أو استجاز أثناءها أربعين شيخاً من علماء السُنـة (المجلسي : بحار الأنوار: ١٩٠/١٠٧) . ليستقرّ بعدها في بلده .

هناك من الأدلـّة ما يكفي ، على أن الشهيد عمل منذ بدو أمره على خطـّة شاملة . رمى منها إلى عدّة مرامٍ مُتلازمة . منها ما هو ثقافي ، ومنها ما هو اجتماعي ـ تبليغي ، ومنها ما هو سياسي .

ـ في الحقل الثقافي . بدأ بإطلاق حركة تدريس واسعة . نجحت في جذب أعدادٍ كبيرةٍ من الطلاّب القادمين من مختلف أنحاء "جبل عامل" ومنهم من جاء من "حلب" و"إيران" . وقد أحصينا في (جبل عامل بين الشهيدين / ١٥٦ـ٥٩ و الشهيد الأول / القسم الخامس من الفصل الثالث) أسماء تسعة وعشرين تلميذاً . وما من ريبٍ في أن هناك أسماء غيرهم ، ضاع ذكرهم . وفي هذا السبيل بنى مدرسة وصفها أحد تلاميذه محمد بن علي الوحيد البتديني بـ "مدرسة عظيمة" (مختصر نسيم السحر ./ ٧ آ) هي أمّ كلّ المدارس الشيعيّة. كما استحضر معه أو تبعه من"الحلـّة" اثنان من تلاميذه فيها لمعاونته في عمله الإعدادي . وصنـّف كتابيه (الدروس الشرعيّة في فقه الإمامية) و (ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة) برسم تلاميذه . وممّا يُذكرأن نسخة من الكتاب الأول موجودة حتى اليوم كتبها أحد تلامذته في العام الذي استشهد فيه . ممّا يدلّ على أن التلميذ كان ينسخ ما يخرج من الكتاب من قلم مُصنـّفه فوراً(آغا بزرك :الذريعة: ٤٠/١٠) .

ـ في الحقل الاجتماعي ـ التبليغي . نشرأعداداً من الناضجين من طلاّب مدرسته في سوح العمل الفعلي ، بعد إعدادهم فكريّاً . ومن ذلك أنه منحهم صلاحيّات واسعة غير مسبوقة تحت عنوان وكلاء النائب العام للإمام . وأنشـأ في السياق نفسـه نظاماً للجباية والصَرْف ، تولاّه أولئك الوكلاء تحت إشراف شيخهم (الشهيد الأول / القسم الخامس من الفصل الرابع) . وهو تنظيم مُقتبَس من سياسة الأئمة (عليهم السلام) ، بعد مدّه بفكرة (النائب العام للإمام) في مقابل الفكرة الأصليّة المعمول بها زمان الأئمة ، النائب الخاص . وما من ريب في أن الشهيد قد استفاد أصل الفكرة من المناخ الفكري العام عليها في "الحلـّة" (راجع فذلكة مُختصرة عن تطوّر الفكرة في "الحلـّة" وإضافة الشهيد عليها في : الشهيد الأول / القسم الثاني من الفصل السابع) . كان ذلك أول تنظيم اجتماعي للجماعات الشيعيّة ، التي كانت خامدةً ، في المناطق التي كانوا يعمرونها فيما يُعرف اليوم بـ "لبنان" السياسي . (القلقشندي : صُبح الأعشى: ١٣ ـ ٢٠) .

ـ في الحقل السياسي . أدّتْ أعمال الشهيد في الحقل الاجتماعي إلى تحريك الكتلة الشيعيّة الكبيرة إلى موقع سياسي فاعل . قامت بعملٍ اعتراضي واسع على سياسة الإمارات التركمانيّة المحليّة ، المدعومة من قِبـَل السلطة المملوكيّة الإقليميّة . إن فهْم وتقديرهذه الخطوة التاريخيّة يستدعي العودة بالكلام إلى ما قبلها .

كان الشيعة منذ قرون يعمرون المنطقة الساحليّة والتلال المُشرفة عليها من "اللاذقيّة" حتى "رأس الناقورة" . ومنذ القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد ، بدأت النكبات تتوالى عليهم . بدأت بالاحتلال الصليبي للساحل كلـّه . فأجلوا سكان مدينة " طرابلس" وما والاها إلى "جبل لبنان" . كما أجلوا سكان "صور" وما والاها إلى "جبل عامل" . كان ذلك أوّل تهجير كبير للشيعة من المناطق الهامّة التي عمروها طويلاً .

التهجير الثاني حصل بعد قرنين تقريباً . فما أن قضى المماليك على آخِر فلول الصليبيين ، حتى انقلبوا على الشيعة . بدأوا بخطوةٍ في مُنتهى الغرابة ، هي تدمير مدينتي "طرابلس" و"صور" الحصينتيَن تدميراً كاملاً . لا لسبب إلا لمنع الشيعة النازلين في التلال المُسامتة لهما من العودة إليهما . ثم شنّوا الحملات المتوالية على مَن كان ينزل منهم "جبل لبنان" أي "كسروان" و "الدمتن الأعلى" و "جُبيل"، رامين إلى

إجلائهم أيضاً عن هذا الموقع الهامّ . وبالفعل نجحوا فيما قصدوا إليه فأجلوهم إلى المناطق الداخليّة . بعد أن ارتكبوا مذبحةً هائلةً ، ما تزال أصداؤها تتداعى في الأدبيّات التاريخيّة (السلوك :٣٣١/٢ والدرر الكامنة:٤٢٥/١ . وابن يحيى : تاريخ بيروت/٥٧ ـ ٥٨ والعقود الدريّة / ١٨١ ـ٨٢) . ثم عمدوا توّاً إلى استقدام جماعات من التركمان فأسكنوهم حيث جلوا .

كان دخول أولئك التركمان في الصيغة السُكانيّة لِما هو "لبنان" السياسي اليوم أهمّ مُتغيّر سُكاني فيه منذ قرون . أي منذ دخول الشيعة إليه ثم الموارنة في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي . كان له من التداعيات ما يزال عالقاً حتى اليوم . ذلك أن هؤلاء أخذوا في الانتشار ، مدعومين من السُلطة المملوكيّة . شمالاً باتجاه "عكار" ، وغرباً باتجاه الساحل ، "بيروت" وما والاها . ومذ ذاك ظهر السُنّة في تلك المناطق (تاريخ لبنان الحديث/١٤والاتجاهات الاجتماعيّة السياسيّة في جبل لبنان والمشرق العربي / ٣٢) . كما ظهرت عدّة إمارات تركمانيّة : بنو سيفأ ، بنو الأعمى ، بنو عسّاف . وطفقت هذه الجماعات التركمانيّة ، بما وراءها من إمارات ذات سطوة ، تمارس شكلاً من أشكال الضغط المعنوي الدائم والعنيف على الشيعة " وأخذوا مذ ذاك يختفون من أكثر مُدُن الساحل اللبناني ، لتحلّ محلهم جاليات تركمانيّة " (تاريخ لبنان الحديث /١٥ و المعنى نفسه لدى عصام شبارو : تاريخ بيروت / ١١٤) . وفي هذا الإطار من الأحداث ونتائجها يجب أن نضع نصّاً يتحدّث عن " أهل السواحل من المُتسنّنين " (بحار الأنوار:١٨٥/١٠٧و لؤلؤة البحرين/ ١٤٦ وروضات الجنات :١٣/٧) أي الذين تحوّلوا عن قريب إلى أحد المذاهب السُنيّة . وهو نص هام جداً ، لمن يرصد التحولات العميقة التي علِقتْ على قاعدة ما وصفناه من أحداث . من حيث أنه يُشير إلى عدد مُعتدّ به من المسلمين الشيعة في "السواحل" ، تأثّر بالاجتياح السكاني . فأنتج ظاهرةً جديدةً ، نجدها دائماً في كل جماعة ، هي الذرائعيّون ، الذين يُقدّمون مصالحهم الشخصيّة على أي اعتبار آخَر . فيحلـّون ما ينالهم من أزمة مجتمعهم بإعلان انضمامهم إلى الطرف الأقوى . حتى حين يكون هو سبب الأزمة .

كل ذلك : التنظيم الاجتماعي للشيعة ، والضغط المُتمادي عليهم ، تفاعل بحيث أدّى إلى أوّل حركة اعتراضيّة واسعة على السياسة المعمول بها من قِبَل السُلطة المحليّة والإقليميّة .

يُشير ابن يحيى في (تاريخ بيروت / ١١١) عَرَضاً إلى حركةٍ واسعةٍ للشيعة في بيروت " لمّا تحرّكت الشيعة في بيروت وأظهروا القيام بالسُنّة ، ومعهم مرسوم سُلطاني . وكانوا في الباطن قائمين بمذهب الشيعة" . وهو نصّ غامض فائدته الأساسيّة بالنسبة لبحثنا هي في التأريخ الذي يورده بعد عدّة أسطر ، يُفهم منه أن تلك الحركة حصلتْ قُبيل السنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م . أي في الوقت الذي كان فيه الشهيد في ذروة نشاطه . ممّا أثار فزع السُلطة ، فأصدرتْ توقيعاً " بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة " (نصّه في : صبح الأعشى : ١٣/١٣ـ٢٠) .

هذا النص ، الذي أثبته القلقشندي ، وبالحُسن الحظ ، بوصفه أنموذجاً لهذا النمط من التوقيعات السلطانيّة ، هو وثيقة فريدة على التأثير السياسي لحوزة "جزين" وما وقفنا عليه من أعمال شيخها . فهو يصِف ثورةً عارمةً ، انفجرتْ في "بيروت وضواحيها وصيدا ونواحيها وأعمالها المُضافة إليها " . وهذا يعني منطقةً واسعةً ، تمتد من بيروت وضواحيها إلى آخر "جبل عامل" . نهضت على أساسٍ من قاعدة ثقافيّة جديدة " انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه " . نشرها بينهم جمعٌ من الدّعاة " بلـّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه " . فغدوا قادة المجتمع الجديد " عظّموا أحكامه وقدّموا حُكّامه " . وكل ذلك ممّا رصدناه في مختلف الميادين التي عمل فيها الشهيد .

في نهاية مساعيه نال ابن مكّي رُتبة الشهادة ، كما هو معروف ، ولكن أعماله في الميدان الثقافي ـ التبليغي خصوصاً كانت قد غدت مكاسب نهائيّة لشعبه . كما أن " جزين" استمرّت على يد أفاضل تلاميذه : المقداد بن عبد الله السيّوري ، الحسن بن أيوب بن نجم الدين الحسيني ، شمس الدين محمد بن نجدة ، وشمس الدين محمد بن الضحّاك ، وشمس الدين محمد بن مُجاهد . لتكون الفاتحة والعنوان لنهضة "جبل عامل" . وكل ما بقي من قصة الحوزات العلميّة التاريخيّة فيه ، إنما هو من قبيل التفاعل المُتسلسل لِما بدأ في "جزين" . وسيكون علينا ، فيما بقي ، أن نصِف امتداد تأثيرها إلى مختلف بلدان "جبل عامل" الثقافي .

٢ ـ عيناتا

بلدٌ في أعالي "جبل عامل" جنوباً بغرب . ما تزال تـُعرف بالاسم نفسه . ويبدو من اسمها الآرامي أنها من المراكز السكانيّة القديمة في الجبل .

وتاريخ "عيناتا" ، بوصفها حاضرةً علميّةً ، يرتبط بأسرتيَن من أعرق الأسرات العلميّة العامليّة . هما بنو الحسام وآل خاتون . وسنؤرّخ للحياة العقليّة فيها بالتأريخ لكلّ من الأسرتيَن .

أ ـ بنو الحسام . وأوّل مَن نعرفه من الأسرة زين الدين جعفر بن الحسام العيناتي . هو مؤسّس حوزتها العلميّة .

وزين الدين ، هذا، فقيه كبير . وصفه الحرّ العاملي بأنه " من المشايخ الأجلاّء " (أمل الآمل:١/ ٤٥) . ووصفه المجلسي بـ " الشيخ الأعظم الأعلم " (بحار الأنوار: ١١٠/ ٦٩) . وهذه أوصافٌ كبيرة ،

خصوصاً وأنها صدرتْ عن علَمَين عارفيَن . لكنها أتتنا مُجملـةً . ومن ذلك أنها لم تقل لنا ماذا كان وماذا فعل لكي يفوز بهذه الأوصاف العالية . ناهيك أن الحرّ، الذي ترجم له بسطرين ، لم يقل لنا متى عاش ، وأين درج ، وعلى مَن قرأ . وما من ريب في أن الحرّ قال ما يعرف ، وسكت عمّا لا يعرف . ممّا نفهم منه أن المعلومات عن هذا الفقيه ، رائد بلده حاضرةً علميّة ، نادرةٌ جداً .

لكننا رأينا الحرّ يختم الترجمة الموجزة له بقوله :" يروي عن السيد حسن بن أيوب بن نجم الدين الحسيني " . ونحن نفهم من هذا الكلام أن ابن الحسام تلميذٌ لابن نجم الدين . الذي عرفناه من أجلّ تلاميذ الشهيد . كما نعرف أنه من الذين ثبتوا على خطّة شيخهم في "جزين" ، في الوقت الذي كان فيه في السجن وبعد مقتله . وما من ريب في أن دراسته عليه كانت فيها . كما أننا ، استناداً إلى المعلومة نفسها ، بوسعنا أن نُقدّر الفترة التي عاش فيها ابن الحسام ، فنقول أنها في النصف الأول من القرن ٩ للهجرة / ١٥ للميلاد . والنتيجة التي نخلُص إليها من هذا الجمع بين المعلومات أنه عيناتي ، قرأ في "جزين" على أحد تلاميذ الشهيد . وما بقي من سيرته يُفيد أنه آب إلى بلده واستقرّ فيها . حيث غدا مقصوداً للدراسة عليه . وبذلك غدا رائد بلده مركزاً علمياً . وهذا هو سبب ما فاز به من أوصافٍ عالية .

نعرف لابن الحسام تلميذين ، أحدهما ابنه علي (الذريعة :٥٦/١) ، والثاني جمال الدين أحمد بن الحاج علي العيناتي (ت: حدود ٨٢٩هـ/١٤٢٥م) (أمل الآمل:٣٤/١وبحار الأنوار:٣٩/١١٠و رياض العلماء:١/ ٤٧) . وإلى هذا يعود الفضل في تعزيز مكانة بلده ، بعد المرحلة التأسيسيّة التي تولاّها شيخه . وهو شيخ ثلاثة من معارف العلماء في زمانهم، هم: محمد بن محمد بن المؤذن الجزيني (ح:٨٨٤ هـ/١٤٧٩م) (بحار الأنوار:٢١/١٠٨) ، ومحمد بن محمد الصِهْيَوْني (ح:٨٧٩هـ/١٤٧٤م) (أمل الآمل:١٣٧/١ وبحار الأنوار:٥٤/١١٠) ، ومحمد بن علي بن محمد بن خاتون العيناتي (ح: ٩٠٠ هـ/١٤٩٤م) (بحار الأنوار:٢٤/١٠٨) . يُضاف إليهم ناصر بن إبراهيم بن بيّاع الأحسائي البويهي (ت:٨٥٣هـ/١٤٤٩م) . وهو من "الأحساء" (رياض العلماء:٢٣٥/٥) ، " هاجر إلى جبل عامل في شبابه وسكن عيناتا حتى مات بها " (أمل الآمل :١٨٧/١) . ويبدو أن ابن الحاج علي، الذي لا نعرف عنه الكثير ، كان أعلى الفقهاء الشيوخ الذين يؤخذ عنهم في زمانه . هنا لا يفوتنا أن نُلاحظ أنه عندما يشخُص ابن "جزين" الرائدة ، أعني ابن المؤذن ، إلى "عيناتا" ليقرأ على شيخها . فهذا يعني أن هذه البلدة ، التي اقتبستْ بالأمس القريب من "جزين" أسباب انبعاثها، قد أخذت تُزاحم أمّها على موقعها التاريخي . والدلالة نفسها نقرأها في هجرة البويهي من "الأحساء" القصيّة إليها دون سواها . هوذا دليلٌ ساطع على أن "عيناتا" قد اكتسبتْ في جبلَين مكانةً وصيتاً وطيب أحدوثة .

من بين التلاميذ الأربعة لابن الحاج علي ، فإن ابن خاتون هو الذي تلقف الراية من شيخه ، ومضى يغذّ بها السّيْر . بعد أن انطفأتْ أسرة بني الحسام بعد كبيرهم ، ولم تعُد تنجب مَن له كبير ذكر (راجع على مَن بقي من الأسرة: جبل عامل بين الشهيدين /١٦٨ ـ٦٩) . وهو الجدّ الأعلى لأعرق الأسرات العلميّة العامليّة على الإطلاق : آل خاتون . التي لم تتوقف حتى اليوم عن إنجاب العلماء . والحقيقة أن حضور "عيناتا" في التاريخ الثقافي لـ "جبل عامل" يرجع الفضل فيه إلى هذه الأسرة .

نعرف لابن خاتون تلميذَين كبيرَين : ابنه أبو العباس جمال الدين أحمد (ح:٩٧٧ هـ/١٥٦٩م) (أمل الآمل :٧٠/١) ، وعلي بن عبد العالي الكركي ، الشهير بالمُحقق (ت:٩٤٠ هـ/١٥٣٣م) (إجازته منه في : بحار الأنوار: ٢٤/١٠٨) . وكلاهما ذو مكانةٍ عاليةٍ في التاريخ الثقافي . والظاهر أن الكركي أدرك شيخه في أواخر عمره ، بدليل أنه تتلمذ أيضاً لابنه أبي العباس (ذكر الكركي ذلك في إجازته لملك محمد في : بحار الأنوار:٨١/١٠٩) .

في أيام أبي العباس أحمد ، وابنه نعمة الله (ح:٩٨٨هـ/١٥٨٠م) ، وحفيده أحمد بلغت "عيناتا" أوج حضورها . والفضل في ذلك يعود إلى أن هؤلاء الفقهاء البارزين الثلاثة تقاطعتْ أعمارهم وهم في حالة نضج علمي . وذلك من محاسن المقادير .

في ذلك الأوان درج على هذا أو ذاك من الشيوخ الثلاثة اثنان من أعرف الفقهاء : علي بن عبد العالي الكركي ، وزين الدين بن علي الجباعي (ق: ٩٦٥ هـ/١٥٥٧م) (أمل الآمل:٣٥/١) . وفيه أيضاً شخُص إليها الفقيه الإيراني الجليل عبد الله بن حسين التُستري (ت:١٠٢١ هـ/ ١٦١٢م) ، حيث درس على نعمة الله علي (إجازته له في : بحار الأنوار : ٨٨/١٠٩ـ٩٣) . وفيه أيضاً قصدها علي بن هلال الكركي ، الشهير بالشيخ علي المنشار (ت:٩٨٣هـ/١٥٧٥م) (بحار الأنوار:٨١/١٠٩) ، الذي سيُسند إليه منصب شيخ الإسلام في "إيران" بعد بلديّه علي بن عبد العالي .

من كل ذلك نعرف أن حوزة "عيناتا" استمرّت عامرةً مُنتجةً زهاء قرن . أنجبت أثناءه جمعاً من أشهر علماء الأوان . ويبدو أن مكانتها انحدرت بسرعة من بعد أولئك الشيوخ الثلاثة ، بسبب انبعاث الهجرة باتجاه "إيران" وغيرها . حيث سيكون لآل خاتون دور مذكور فيها وفي "الهند" (جبل عامل بين الشهيدين / ١٧٢ـ٧٥) .

٣ ـ الكـرك

بلدة في أصل "جبل لبنان" من شرقيّه . واسمها الآرامي (= حصن) يدلّ على أنها قديمة . والظاهر أن أصل البلدة موقعٌ مُحصّن على الطريق الاستراتيجيّة الموصلة إلى "دمشق" .

أوّل مَن نُسب إلى "الكرك" من أهل العلم طارق بن أحمد الكركي (٥٢٧ ــ٥٩٢هـ/ ١١٣٢ــ١١٩٥م) . وهو شخصيّة غامضة . وصفه الذهبي بـ " المُحدّث العالِم" (سِيَر أعلام النبلاء : ٢٧٠/٢١) وابن ماكولا بـ " الشيخ الأجلّ" (الإكمال:٦١/٢) . وقال فيه ياقوت :" كان ثقةً في الحديث ، تاجراً كثير المال [. . . .] وكان رافضيّاً " (: ٤٥٢/٤) ، إلى غير ذلك . ولا ذكر له في المصادر الشيعيّة ، سوى ما نقله السيد الأمين في (أعيان الشيعة: ٦١٨/٢) عن المصادر المذكورة ومثلها . فهذا كلّه يدلّ على أن الرجل على ما كان له من مكانة عالية ، وعلى أنه كان شيعيّاً بلا خلاف ، فإنه لم يتصل بالمصادر الثقافيّة الشيعيّة بسببٍ نعرفه . وإنما ذكرناه على سبيل تأصيل الموقع الذي صار إليه بلده فيما بعد (مادة إضافيّة تكمِل هذا التأصيل في : جبل عامل بين الشهيدين / ١٧٧ــ ٧٩) .

وأوّل مَن نقع على اسمه في مقدمات الطور النهضوي لـ "الكرك" ، هو حسين بن محمد بن هلال الكركي (ح:٧٥٧ هـ/١٣٥٦م) . وهو تلميذ للشهيد . التقى به في "الحلـّة" وقرأ عليه وأجازه (نص الإجازة في : رياض العلماء:٣٧٤/٣) . وهذا كلّ ما نعرفه عنه . ومع ذلك فإن شخوص ابن هلال إلى "الحلـّة" ، ولقاءه الشهيد فيها يضع "الكرك" في موازاة "جزين" ، وليس خلفها كما رأينا في أنموذج "عيناثا" . ثم محمد بن عبد العالي الكركي (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ، نظن أنه عمّ للمحقق . وهو أيضاً تلميذٌ للشهيد (بحار الأنوار:٢٨/١٠٧) . ومع أنه كان مُقيماً في "الكرك" بالتأكيد ، فإننا لانشهد لوجوده أي أثر في بناء نهضتها .

نعتقد أن ابن العشرة الكسرواني هو الفاتح لِما استقبل من أمر "الكرك"، ورائد النهضة فيها . بحيث دخلت التاريخ من أوسع الأبواب كما سنرى . واسمه الكامل : " عز الدين الحسن بن يوسف ، الشهير بابن العشرة الكسرواني ". نقول ذلك لِما في المصادر من اختلاف بالغ على سيرته ، بل حتى على اسمه . وقد اعتمدنا فيما أوردناه من اسمه على تسجيلات تلميذه محمد بن علي الجُباعي (بحار الأنوار: ٢٠٩/١٠٧) .

من الثابت أن ابن العشرة قرأ على تلميذين من تلاميذ الشهيد . هما : الحسن بن أيوب ، وقد عرفناه من قبل شيخاً لجعفر بن الحسام ، وعلى محمد بن علي بن نجدة . وكذلك على محمد العريضي ، وهو تلميذ لابن أيوب . والأرجح أن قراءته عليهم كانت في "جزين" .

ومن الثابت أيضاً أنه استقرّ بعدُ في " الكرك" ، حيث طفق الطّلاب يتوافدون للقراءة عليه . ممّا يُشير إلى مكانته العلميّة . ونحن نعرف خمسةً من تلاميذه هم :

ـ محمد بن الإسكاف الكركي . ينفرد بذكره عبد الله أفندي عرَضاً أثناء الترجمة لابن العشرة (رياض العلماء:٢٦٤/١) . ودلالة ذلك غير خفيّة . أمّا الأربعة الباقون فهم من معارف العلماء .

ـ محمد بن علي الجباعي (ت:٨٧٦هـ/١٤٧١م) (بحار الأنوار:٢٠٩/١٠٧) . الذي سنعرفه بوصفه مؤسّساً للحوزة العلميّة في " جُباع " وجدّاً لأسرةٍ من معارف الفقهاء . آخرهم وأشهرهم بهاء الدين العاملي .

ـ محمد بن محمد بن المؤذّن الجزيني .قال في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي :" وبطريق آخر عن شيخي الأفضل عز الدين الحسن بن العشرة" (بحار الأنوار:٣٥/١٠٨) .

ـ محمد بن أحمد الصّهْيَوْني . قال في إجازته للميسي أيضاً :" وأجزتُ له أن يروي عني ، عن الشيخ عز الدين بن العشرة" (بحار الأنوار:٣٨/١٠٨ـ٣٩) .

ـ علي بن هلال الجزائري (ح:٩٠٩هـ/١٥٠٣م) . وأصله من "الجزائر" ، أي منطقة الأهوار جنوب " العراق" . هاجر فتىً إلى "الكرك" . وفيها قرأ على ابن العشرة . يقول في إجازةٍ صدرتْ عنه :" . . . . عن شيخي المولى الشيخ الأعظم ، العالم الفاضل الكامل ، الشيخ عز الدين حسن بن يوسف " (بحار الأنوار:٢١/١٠٨) . وفيها أمضى عمره الطويل . وغدا " شيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع" على حدّ قول تلميذه المُحقق (بحار الأنوار:٧٠/١٠٨) .

توفي ابن العشرة في "الكرك" سنة ٨٦٢ هـ/١٤٥٧م ، بعد أن وطـّد لنفسه ولبلده مكانا سامياً في التاريخ الشيعي الثقافي . بحيث غدت بفضله بلداً مقصوداً . قصدها وعاش فيها علي بن هلال الجزائري ، كما عرفنا . ودخلها أحمد بن فهد الحلـّي ، وأقام فيها عدّة سنوات . أجاز أثناءها ابن العشرة (أنيس المُسافر . مطبوع بعنوان " الكشكول"١٨٨/٢ــ٩٣) ثم زارها محمد بن علي بن أبي جمهور الأحسائي ، واستجاز شيخها ابن هلال (مجالس المؤمنين:٥٨٠/١) . وأيضاً السيّد حسين بن علي بن حسن الحسيني بن عيسى السبزواري (ح: ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧م) ، وفيها قرأ على محمد بن أحمد المطاري كتاب (الدروس الشرعيّة) للشهيد . والأستاذ حفيدٌ لمحمد بن عبد العلي بن نجدة تلميذ الشهيد (الذريعة (الضياء اللامع) / ٤٨ ـ ٤٩) .

علينا الآن أن نقف عند أسرة بني الأعرج الكركيّة . وهي ، مثل آل خاتون ، أسرة مُعرِقة في التاريخ الثقافي لـ "جبل عامل" . رافقته منذ بدايات نهضته حتى غروبها بالهجرة الواسعة إلى "إيران" وغيرها . لكن بني الأعرج نجحوا في أن يبنوا لأنفسهم مكانةً عاليةً في "إيران" ، وفشل آل خاتون .

وأوّل مَن نعرفه من بني الأعرج ، الحسن بن أيوب . وقد ذكرناه من قبل ، بوصفه أحد أبرز تلاميذ الشهيد ، وأستاذاً للرائدين الكبيرَين جعفر بن الحسام العيناثي ، وابن العشرة الكسرواني . ومن بعده ابنه جعفر (تكملة أمل الآمل /١١٩) ، ثم حفيده حسن (ت:٩٣٩ هـ/١٥٣٢م) ، وهو أول مَن استوطن "الكرك" (أمل الآمل:٥٦/١) . وفيها قرأ عليه علي بن هلال الكركي ، الشهير بالشيخ علي المنشار ، وزين الدين بن علي الجباعي ، الشهيد الثاني (الدرّ المنثور من المأثور وغير المأثور:١٥٩/٢) وحسين بن عبد الصمد الجباعي . وكلهم من العلماء المعارف .

لأوّل مرّة منذ الشهيد ، نقع على ثبت وافٍ بمصنفات أحد رموز النهضة ، أعني السيد حسن نفسه . أوردها الشهيد الثاني في إجازته لتلميذه حسين بن عبد الصمد (بحار الأنوار:١٠٨/ ١٥١) . سنقتبسها لأنها تضعنا في الجو الفكري لمصنفها :

ـ شرح الطيّبة الجزريّة في القراءات العشر ، لمحمد بن محمد الجزري .
ـ العُمدة الجليّة في الأصول الفقهيّة .
ـ المحجّة البيضاء والحُجّة الغرّاء (جمع فيه بين فروع الشريعة والحديث والتفسير) .
ـ مُقنع الطلاب فيما يتعلق بكلام الأعراب (في النحو والتصريف والمعاني والبيان) .

وكلها مفقودة .

كان السيد حسن الذروة التي انحدرتْ عنها الأسرة في وطنها . لترتقي ذروةً أخرى في مهجرها "إيران" . ذلك أن ابنه أوّل مَن هاجر إليها من الأسرة . وهناك حمل لقب "الأمير" . وله ذكرٌ عريضٌ في (عالَم آراي عباسي / انظر الفهرست) لإسكندر بيك مُنشي . وحمل أخلافه لقب "ميرزا" . وتقلبوا في مختلف المناصب (انظر " مُخطّط الحركة العلميّة في الكرك" في : جبل عامل بين الشهيدين/ ٢٠٠) . ومن قبلُ هاجر إليها علي بن عبد العالي الشهير ، ثم علي بن هلال الكركي . وهكذا انتهتْ صفحة "الكرك" من كتاب النهضة العامليّة ، بعد أن عاشت أقلّ من قرن .

٤ ـ مَيْس

قريةٌ في أعالي "جبل عامل" من جنوبه . مُشرفةٌ على شرق سهل "الحولة" . ما تزال تُعرَف بالاسم نفسه .

والفضل في الموقع الذي احتلته "ميس" في التاريخ الثقافي لـ "جبل عامل" يرجع إلى ابن لها وحيد هو علي بن عبد العالي الميسي (ت:٩٣٨ هـ/١٥٣١م) (رياض العلماء:١١٦/٤) . هو رائد حركة التدريس في بلده ، التي منحتها أن تكون إحدى مراكز النهضة ، وإن لزمن قصير .

درس ابن عبد العالي على محمد بن محمد بن المؤذن الجزيني ، وعلى محمد بن أحمد الصِهْيَوْني . ونحن نعرف الاثنين تلميذَين لابن العشرة في "الكرك" . وقد أجازه الأول بتاريخ "حادي عشر محرم الحرام من شهور سنة أربع وثمانين وثمانماية (بحار الأنوار:٣٥/١٠٨) والثاني بتاريخ " يوم الخامس من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وثمانماية" (نفسه/٣٨) . ولا ذكر في الإجازتَين لمكان صدورهما . ولكن من المؤكد أنه بعد أن اكتفى من الدراسة استقرّ في قريته حتى وافته المنيّة .

يصِفُ الشهيد الثاني أستاذه الميسي بـ " الإمام الأعظم ، شيخ فضلاء الزمان ، ومُربّي العلماء " (رياض العلماء: ١١٦/٤) . ونعرف ممّن ربّاهم ثلاثة : الحسن بن جعفر بن أيوب الكركي . أعلى شيوخ "الكرك" مكانةً في زمانه . وعلي بن أحمد بن الحَجّة الجباعي (أمل الآمل: ١٨٨/١) . وزين الدين بن علي ، الشهيد الثاني (الدرّ المنثور:١٦٢/٢) . ونُرجّح أن له من التلاميذ غير هؤلاء ، لمكان وصْف تلميذه إياه بـ "مُربّي العلماء" ، الذي يودع في النفس أن عديدهم أكبر .

كان ابن عبد العالي القمّة التي وصلتْ إليها قريته بسرعة . لكنها انحدرتْ عنها بالسرعة نفسها . ذلك أنها جاءت وقد آذنت شمس النهضة بالمغيب ، تحت وطأة الحكم العثماني القاسي .

من بعده لم يبقَ في "ميس" إلا ابناه إبراهيم وجعفر . اللذين لا نعرف ما يُذكر عن الظرف الذي اضطربتْ حياتهما فيه ، قبل أن يهاجرا إلى "النجف" فيما يبدو (بحارالأنوار: ١٣٧/١٠٨و١٨٠ـ٨١) . ومنها انتقل عبد الكريم بن إبراهيم إلى "إيران" . وكان "من علماء دولة الشاه طهماسب الصفوي" (رياض العلماء: ١٩/١) . وهو والد الشيخ لطف الله العاملي ، الذي يُنسَب إليه "مسجد الشيخ لطف الله" الشهير في "إصفهان" .

ـ مشغره

بلدٌ في سفح "جبل لبنان" ، على كتف الوادي الذي شقّته نهر الليطاني بين "سهل البقاع" و "جبل عامل" .

ونحن نعرف أن "مشغره" التحقتْ مُبكرةً بحركة الرّيادة التي مهّدتْ للنهضة . وذلك بشخص ابنها يوسف بن حاتم المشغري (ح:٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ، الذي شخُص إلى "الحلة" وقرأ فيها (جبل عامل بين الشهيدَين/٦٨ ـ ٧٢) . ولكننا رأيناها من بعدُ قد عقمتْ أمَداً طويلاً ، إلى أن ظهر فيها محمد بن حسين بن

محمد بن محمد بن مكـي (ح:٩٠٣ هـ/١٤٩٨م) . و هو جدّ الأسرة المعروفة حتى اليوم بآل الحرّ ، ومنه تسلسلتْ . وإليها يعود الفضل في دخول "مشغره" في النهضة العامليّة . و من هنا نقول إن التاريخ الثقافي للبلدة ليس إلا تاريخ آل الحرّ .

النص الوحيد الذي يفتح أمامنا مغاليق التاريخ المُبكـّر لآل الحرّ ، هو الإجازة التي خطـّها علي بن عبد العالي الكركي لـ "الشيخ حسين بن الشيخ شمس الدين محمد الحرّ بن الشيخ شمس الدين محمد بن مكـّي" . وقد وصلتنا بنصّها كاملةً (بحار الأنوار:١٠٨/٥٤ـ٥٧) . صدرتْ "بدمشق سادس عشر شهر رمضان المُعظـّم عام ثلاث وتسعماية" . وما من شك في أن المُستجيز كان مُقيماً آنذاك بـ "دمشق" . ولم يكـُن هو ولا أبوه ولا جدّه مشغريّاً . ولا نعرف عنهم غير ذلك . لكن القدَر المتيقن أنهم كانوا من الفقهاء ، بشهادة الأوصاف التي أغدقها المُجيز عليهم . والغريب أن خلَفَهم الحرّ العاملي لم يأتِ على ذكر أجداده الثلاثة إطلاقاً في (أمل الآمل) ، حتى ولا عرَضاً ، الأمر الذي أثار عجب السيد الأمين (أعيان الشيعة : ١٣٦/٦) .

أوّل مَن يذكره الحرّ العاملي من أسلافه في "مشغره" هو جدّ والده "محمد بن الحسين الحرّ العاملي المشغري" (أمل الآمل:١٥٤/١) . ونسبته إلى "مشغره" تشهد بأنه أوّل مَن تحوّل من "دمشق" إليها ، والمؤسّس لوضعها الجديد . والاسم ، كما حرصنا على نقله بنصّه ، يشهد بأن الحرّالعاملي كان يعرف جدّ جدّه حسين بن محمد . ونحن نعرف أنه منح أفراد أسرته في "مشغره" مكاناً رحباً في كتابه . ومنهم مَن ليس له كبير شأن . فكأنه يُريد أن يمحو تاريخهم قبلها من الذاكرة .

يصِف الحرّ والد جدّه محمد بأنه "كان فاضلاً عالماً فقيهاً جليل القدر عظيم المنزلة . أفضل أهل عصره في الشرعيّات" . وما من شك في أن في الوصف الأخير مبالغة كبيرة . فالرجل مُعاصر لأفاضل كبار ، هم علي بن عبد العالي الميسي ، وعلي بن عبد العالي الكركي ، والشهيد الثاني . وكان الأولى به أن يُترجم له بأكثر ممّا فعل . كأن يقول لنا تاريخه العلمي ، ويذكر مصنفاته إن كان له مصنفات . والأرجح أنه عندما تحوّل إلى"مشغره" كان مُستغنياً عن الطلب . وربما كانت دراسته على والده في "دمشق" فقط . كما نُخمّن أن لتحوّله هذا علاقة بالفتح العثماني لـ "الشام" ، وبما حمله من مناخ جديد ، ليس ممّا يرتاح إليه فقيهٌ شيعي . فإذا صحّ ذلك فهو يعني ضمناً أن ذلك حصل بُعيد السنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م .

أنجب الرائد محمد ثلاثة أبناء ، كلهم فقهاء : محمد وعبد السلام وعلي .

أمّا محمد فقد كان على ما وصفه به ابن أخيه "عالماً فاضلاً مُحققاً مُدققاً . ماهراً في علوم العربيّة وغيرها . شاعراً مُنشئاً أديباً . فريد عصره في العلم والحفظ وحُسْن الشعر" (نفسه/ ٦٠) . ولكننا رأيناه يصفه في مكان آخر من كتابه بأنه"أفضل أهل عصره في العقليّات" (أيضاً / ١٥٤) . ثم أنه يقول في المورد الأول :" قرأ على أبيه وعلى حسن بن الشهيد الثاني ومحمد بن أبي الحسن" ، وفي المورد الثاني :"قرأ عند الشهيد الثاني" . فكأنه يكتب عن الهوى . والصحيح أنه تلميذ الشهيد الثاني (الدر المنثور:١٩١/٢) . و هو أول المهاجرين من أسرته إلى "إيران" ، حيث لقي بهاء الدين العاملي ، ومدحه هذا بقصيدتين في غاية العذوبة (أمل الآمل:١٦٠/١) ، تُفصحان عمّا يُكنّه لرفيق درس والده من تقدير عالٍ . والظاهر أنه توفي في مهجره . وتـُذكـَر له ثلاثة مُصنفات : نظم تلخيص المفتاح ، ورسالة في الأصول ، وأخرى في العروض .

وأمّا عبد السلام فهو تلميذٌ لأبيه ولأخيه علي في "مشغره" ، وللحسن بن الشهيد الثاني ومحمد بن أبي الحسن في "جباع" . وهو أول أساتذة الحرّ العاملي ، وصفه بأنه "كان ماهراً في الفقه والعربيّة . قرأتُ عليه وكان عمري عشر سنين" . ومن هنا نعرف أن الحركة العلميّة في "مشغره" كانت ما تزال عالقةً سنة ١٠٤٣ هـ/١٦٣٣م . وله رسالة سماها "إرشاد المُنصف البصير إلى طريق الجمع بين أخبار التقصير" ، ورسالة في المُفطرات ، ، وثالثة في الجمعة (نفسه :١٠٨/١ـ١٠٩) .

ثالث الأخوة علي ترجم له حفيده بثلاثة أسطر وكلمات عامّة . ويبدو أنه لم يكن في مثل مقام أخويه . وهو الوحيد الذي استمرّت الأسرة بأخلافه حتى اليوم . أنجب ثلاثة بنين :

ـ حسين ، و هو ثاني المهاجرين من الأسرة إلى "إيران" " سافر إلى إصفهان ، وأسكنه شيخنا البهائي في داره . وكان يقرأ عنده حتى مات شيخنا البهائي . ومات بعده بمدّة يسيرة" (أيضاً :٧٨/١) .

ـ حسن ، وهو والد مصنّف (أمل الآمل) . أنجب أربعة بنين : محمد وزين العابدين ، لحقا بأبيهما إلى مهجره . وأحمد وعلي عاشا وتوفيا في "مشغره" .

ـ محمد ، وهو الذي تحوّل إلى سكنى "جباع" ، حيث ما تزال الأسرة . و هو أوّل مَن قال فيه ابن أخيه "المشغري الجباعي" (أيضاً:١٧٠/١) . وعنه تسلسل كل مَن نعرفهم منها .

هكذا تطابق تاريخ "مشغره" ، بوصفها حاضرةً علميّة ، مع تاريخ آل الحرّ . نزلوها بشخص ابنها محمد بن الحسين ، فانتعشتْ وأينعتْ . ثم هجروها ابتداءً بمحمد بن علي ، فعادتْ كأن لم تغنَ بالأمس .

ذلك الترابط التاريخي حمل معه ترابطاً فكريّاً . منح "مشغره" معنى المدرسة الفكريّة . امتدّ تأثيره حيثما حلّ أبناؤها ، بعد أن تعدّدتْ منازلهم . ذلك أن أعلامها، دون غيرهم من رجالات "جبل عامل" ، كانوا أخباريين . بمَن فيهم آخر اثنين عرفناهما معرفةً شخصيّة . وسيحمل المهاجرون المشغريّون الاتجاه الأخباري

معهم إلى "إيران" . وسيصبح محمد بن الحسن الحرّ المؤسّس الحقيقي للحركة الأخباريّة فيها . وفي سبيل تقديم أفكاره صنّف كتابه الشهير (وسائل الشيعة لتحصيل مسائل الشريعة) . وهو اسم واضح المغزى .

يبقى أن نتساءل : من أين وعمّن اقتبسوا ذلك الاتجاه ؟

يصعب الجواب على نحوٍ مؤكد . لأننا لانعرف ما يُذكرعن أبناء الأسرة قبل "مشغره" . بل إننا نشكّ في أن الصيغة التي طرحنا بها السؤال صحيحة . فهل هم اقتبسوا ذلك النهج ؟ أم أنه ثمرة تطوّر داخلي ؟ نُرجّح الاحتمال الثاني . ليس لأننا نملك عليه دليلاً . بل لأننا لا نملك دليلاً على الاحتمال الأول .

٦ ـ جُباع

بلدةٌ على التلال المُشرفة على مدينة "صيدا" ، ما تزال تُعرف بالاسم نفسه . واسمها الآرامي يدلّ على أنها من البلدان القديمة .

لسنا نعرف لـ "جُباع" قبل القرن ٩هـ/١٥م ذكراً فيما جدّ على "جبل عامل" من مراكز علميّة ، أو أن أحد ابنائها قد التحق بمركزٍ منها . وما ذاك إلا لأنها ظهرت بعد أن انهارت مركزاً بعد مركز، بسبب تبدّل المُناخ العام ، بعد أن دخلت المنطقة في مِلك الدولة العثمانيّة . فجاء ظهورها ارتكاساً على جو الخوف والترقّب . أخذ شكل تجمّعٍ في وسط الكثافة السكانيّة الشيعيّة . بعد أن كانت كل المراكز السابقة على أطرافها.

نقول :" قبل القرن ٩هـ " لأن أوّل من برُز من أبنائها هو محمد بن علي بن حسن الجُباعي (ت: ٨٨٦هـ/ ١٤٨٧م) . الذي عاش أسلافه في قرية "اللويزة" المجاورة .

ونحن نعلم ممّا علقناه على "الكرك" أن محمداً قرأ فيها على ابن العشرة الكسرواني . وما من شك في أنه شيخه الرئيس . ذلك أن التلميذ ، الذي سنعرفه مولعاً أشدّ الولع بالتسجيل والتأريخ ، لم يذكر غيره شيخاً له . يُعزّز ذلك أنه قال ، بعد أن أرّخ لوفاة شيخه :"قرأتُ عليه كثيراً" (بحار الأنوار:١٠٧/١١٠) .

يصِف الشهيدُ الثاني محمداً بـ "الشيخ الإمام" . وذلك في إجازته لتلميذه حفيد محمد ، حسين بن عبد الصمد الجُباعي (نفسه :١٠٨/ ١٣٨) . وهذا وصفٌ عالٍ ، لا نعرف له سبباً . فالموصوف لا تذكر له مُصنفات ، عدا مجموعه الهام الذي سنفرغ له على التوّ ، وأيضاً لا نعرف له تلاميذ . فعلامَ إذن استحقّ لقب "الإمام" ؟ الأرجح أن تساؤلنا يعود إلى نقص معلوماتنا عنه . خصوصاً وأن الوصف صدر عمّن لا يرقى الشك إلى اطلاعه ودقته .

ختام هـذا التعريف أن نقف على الأثر الوحيد الباقي لمحمد . ذلك المعروف باسم (المجموع) أو (مجموع الجُباعي) . وهو في مجلدَين أو أكثر . وقع للمُحدّث النوري (ت: ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) منها مجلدان. هما اليوم في "كتابخانه ملك" في "طهران" . وفي مكتبة مدرسة السيّد البروجردي في "النجف" نسخة ، عليهـا تعليقـات لمحمد بـن زُهـرة الجبـاعي (ت:٩٤٤هـ/١٥٣٧م) ولبهـاء الـدين العـاملي (ت: ١٠٣٠هـ/١٦٢١م) . والمجموع لم يجِد حتى اليوم مَن يهتم بتحقيقه ونشره ، مع أن يُنقل عنه كثيراً ، لِما فيه من تأريخات وتحقيقات نفيسة .

يمكن القول أن موقع محمد من "جُباع" ، بوصفها محلاً لحوزة علميّة ، هو موقع مَن وضع حجر الأساس ، ولا نقول المؤسّس . لأننا لم نشهد له نشاطاً تأسيسيّاً على نحو ما رأينا من قبل من كبار المؤسسين .

والحقّ أن "جُباع" لم تبلغ الشأو الذي بلغته إلا على يد ابنها الشهيد الثاني . لكن من الحقّ أيضاً أن نذكر أن السلسلة لم تنقطع أثناء زهاء نصف القرن الفاصلة بين محمد والشهيد . وأن حلقاتها اتصلت بأعلام ثلاثة هم : علي بن أحمد النحاريري (ت: ٩٢٥ هـ/١٥١٩م) ، وهو والد الشهيد الثاني ، وعبد الصمد بن محمد الجُباعي (ت:٩٣٥هـ/١٥٢٨م) ، وحسين بن أبي الحسن (ت: ٩٦٣هـ/١٥٥٥م) . وهو جدّ أسرة آل أبي الحسن الشهيرة ، التي أنجبتْ ، وما تزال ، عشرات العلماء الأعلام . ومنهم الإمام موسى الصدر ، والشهيد محمد باقر الصدر .

وعليه فإن كلّ ما بقي من كلام على خاتمة الحوزات العلميّة التاريخيّة في "جبل عامل" هو على سيرة وأعمال الشهيد الثاني ، كما كان الكلام على فاتحتها "جزّين" على سيرة وأعمال الشهيد الأول .

بدأ الشهيد الدراسة في بلده على والده. وكان من جملة ما قرأه عليه (المُختصر النافع) و(شرائع الإسلام) و (اللُمعة الدمشقيّة) . وبُعيد وفاة والده (ت:٩٢٥ هـ/١٥١٩م) انتقل إلى "ميس" حيث اشتغل على شيخها علي بن عبد العالي الميسي. قرأ عليه (شرائع الإسلام) و(إرشاد الأذهان) و(قواعد الأحكام) . ارتحل بعدُ إلى "الكرك" فاشتغل على حسن بن جعفر الكركي . قرأ عليه (القواعد الإلهيّة) و(التهذيب) و (العُمدة الجليّة) (الدرّ المنثور :٢/ ١٥٨ـ٥٩) . فهذه ثماني عشرة سنة من سعيه العلمي (٩٢٠ـ٩٣٨هـ/ ١٥١٤ـ١٥٣١م) . أنهاها وله من العمر سبعٌ وعشرون سنة .

في السنوات التاليات صرف جُهده إلى العناية بالطلاب الذين بدأوا يتحلقون حوله . ممّا يُذكرنا بنهج سلفه وشريكه في لقب (الشهيد) في "جزّين" . ولكننا رأيناه سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م يبدأ رحلة واسعة ، زار أثناءها "دمشق" و" بيت المقدس" و"مصر" وختمها بالحج . رامياً ، فيما يبدو ، إلى أن يبني لنفسه شبكة

علاقات واسعة بفقهاء "الشام" و"مصر" . أنها ها بالإياب سنة ٩٤٤ هـ/ ١٥٣٧م (نفسه/١٥٩ ـ٦٨) . ليستقر في بلده حتى السنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م . سافر أثناءها إلى "العراق" و"بيت المقدس" .

أواخر السنة ٩٥١ هـ رأيناه يخطو خطوةً غير متوقعة من مثله . إذ ارتحل قاصداً "استامبول" لغرض "الاجتماع بمَن فيها من أهل الفضائل والعلوم والمتعلقين بسلطان الوقت والزمان السلطان سليمان" (أيضاً /١٧٠) . والظاهر أنه ابتغى من رحلته هذه أن يصِل إلى تحرير الدولة من عُقدتها التاريخيّة ، منه شخصياً ، بوصفه أعلى الفقهاء الشيعة شأناً في "الشام" ، ومن "جُباع" بوصفها المركز العلمي الرئيس فيه.

مهما يكن فإنه عاد من رحلته وبيده براءةٌ رسميّة بمشيخة "المدرسة النوريّة" في "بعلبك" . وهذا اعترافٌ رسمي بكفاءته العلميّة ، وشهادةٌ على نجاحه في اختراق الحاجز المذهبي . فأقام في "بعلبك" "مرجع الأنام وملاذ الخاص والعام . يُفتي كلّ فرقة بما يوافق مذهبها . ويُدرّس في المذاهب كلّها" (أيضاً / ١٨٢) . وهذا إنجازٌ تاريخي ، وتجربةٌ فريدة في كلّ ما نعرفه من تاريخنا . ولا شك أن السلطة المحليّة كانت في غاية الانزعاج من هذا الإنجاز ، لأنه يُعاكس الاتجاه المذهبي الحادّ للدولة .

بعد زهاء السنتيَن في "بعلبك" رأيناه يعود فجأةً إلى"جُباع" . لا ريب أنه لم يترك ماكان فيه من "أيام ميمونة وأوقات بهجة" (نفسه) إلا لأمرٍ قد زعزعه . يُعلق تلميذه ابن العودي على هذه الكلمات التي ختم بها شيخه مذكراته بالقول :" وهذا التاريخ كان خاتمة أوقات الأمان والسلامة من الحدثان . ثم نزل به ما نزل" (أيضاً) . يُشير بذلك إلى السنوات العشر الأخيرة من حياته . التي كانت فترة مُطاردةٍ عنيدةٍ من أجهزة السلطة . أمضاها مُتخفياً ، متنقلاً بين مُختلف قرى "جبل عامل" . وفيها كتب أكثر مُصنفاته التي فاقت الخمسين .

في وقتٍ ما من السنة ٩٦٤ هـ/١٥٥٦م فارق وطنه قاصداً "مكة" بنيّة المجاورة . حيث ظن أنه سيكون آمناً في حرم الله . لكن أجهزة السلطة تعقبته حيث هو ، وقبضتْ عليه في المسجد الحرام ، وساقته إلى عاصمتها ، حيث أوردته مورد الهلاك .

كانت أعمال الشهيد الثاني في "جُباع" آخر نبضةٍ في الحياة العلميّة في وطنه . كأنها التماعة سراج ينطفئ . ربّى أثناءها عدداً كبيراً من التلاميذ، بينهم عدد من المعارف ، أحصينا مَن نعرف منهم في (جبل عامل بين الشهيديَن/٢٢٨) . كما كتب عدداً من المُصنفات التي ما يزال أكثرها موضع العناية حتى اليوم . تشتّت بعدها الشمل . لكن ليزرع أبناءُ "جبل عامل" أنفسهم حيثما حلوا ، مُنبتين الباقيات الصالحات .

المصادر : آغا بزرك : الذريعة ، ط. بيروت ، لات. علي الجباعي : الدر المنثور من المأثور وغير المأثور ،ط. قم ١٣٩٨هـ . محمد الجباعي : المجموع / مجموع الجباعي ، مخطوط في "كتابخانه ملك" في طهران برقم ٦٤٠ . جعفر المهاجر : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية ،ط. بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م . جبل عامل بين الشهيديَن ،ط. دمشق ٢٠٠٥م . الشهيد الأول .عصره، سيرته، أعماله وما بقي منها (تحت الطبع) . الحر العاملي: أمل الآمل ،ط. بغداد ١٣٨٥هـ . حسن الصدر: تكملة أمل الآمل،ط. قم ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م . الخوانساري : روضات الجنات،ط. قم ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م . الذهبي: سير أعلام النبلاء،ط. بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م. العِبَر في خبر مَن غبر ، ط. الكويت ١٩٦١م . الشهيدي : مختصر نسيم السحَر، مخطوط في مكتبة مدرسة السيد البروجردي في النجف برقم ٣٩٩/٨ . الشوشتري:مجالس المؤمنين،ط. إيران ،لات. الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر،ط. بيروت١٥١٨هـ/١٩٩٨م . الوافي بالوفيات،ط. بيروت١٤٠١هـ/١٩٨١م. عبد الله أفندي الإصفهاني:رياض العلماء،ط.قم ١٤٠١هـ . ابن عبد الهادي: العقود الدريّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميّة ،ط.القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م . العسقلاني:الدرر الكامنة،ط.مصر،لات. عصام شبارو:تاريخ بيروت١٩٨٧م . القلقشندي:صُبح الأعشى،ط. القاهرة،لات. كمال صليبا: تاريخ لبنان الحديث،ط.بيروت١٩٨٧م . ابن ماكولا: الإكمال،ط.حيدر آباد،لات. المجلسي:بحار الأنوار،ط.بيروت١٤٠٣هـ/١٩٨٣م . محسن الأمين:أعيان الشيعة،ط.بيروت١٤٠٣هـ/١٩٨٣م . المقريزي: السلوك لمعرفة دُوَل الملوك،ط.بيروت ١٤١٨هـ/١٩٨٨م . وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعيّة السياسيّة في جبل لبنان والمشرق العربي ،ط. بيروت ١٩٨٧م . ياقوت: معجم البلدان، ط. بيروت ، دار صادر،لات. ابن يحيى: تاريخ بيروت ،ط. بيروت ١٩٩٠م ، يوسف البحراني: أنيس المُسافر (مطبوع باسم " الكشكول")،ط. بيروت ١٩٨٦م . لؤلؤة البحريَن ،ط. النجف ،لات. اليونيني : ذيل مرآة الزمان،ط. حيدر آباد ١٣٧٤هـ .